الفصل الأول
معنى السنة

وفيه:

١ ـ التعريف بالسنة:

ا ـ لغة.

ب ـ اصطلاحاً.

٢ ـ السنة وعمل الصحابة.

٣ ـ السنة والبدعة.

٤ ـ الحديث والخبر والأثر.

٥ ـ الحديث القدسي.

٦ ـ المتن والسند.

٧ ـ أهمية الإسناد واختصاص الأمة الإسلامية به.

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً ـ التعـريف بالسـنة

١ ـ السنة في اللغة:

هي السيرة، حسنة كانت أو قبيحة، قال خالد بن عُتبة الهُذَليّ:

فَلَا تَجْزَعَنْ مِن سيرةٍ أنتَ سرتهَا ... فأوَّلُ راضٍ سنّةً من يَسيرُها

وسَنَنْتها سناً واستَنَنْتها سرتها، وتقول: سننت لكم سنة فاتّبعوها، إذا عملت عملاً لم تُسبق إليه، وأردت أن يتبعك غيرك عليه.

وفي الحديث عن الرسول ﷺ قال: «مَنْ سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فله أجرها، وأجر من عملَ بها بعده، من غير أن يَنقُصَ من أجورهم شيءٌ، ومن سن في الإسلامِ سنة سيئةً، كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ»(١). يريد من عملها ليقتدى به فيها.

وقـد تكـرر في الحديث النبوي الشريف ذكر السنة وما تصرف منها، والأصل فيها الطريقة والسيرة.

٢ ـالسنة في الشرع:

إذا أطلق لفظ السنة في الشرع فإنما يُراد بها ما أمر به الرسول ﷺ، ونهى عنه، وندب إليه قولاً وفعلاً، ولهذا يقال في الأدلة الشرعية: الكتاب والسنة. أي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» ص ٧٠٥ جـ ٢، وص ٢٠٥٩ جـ ٤.

ومع هذا فإن معنى السنة يختلف في اصطلاح علماء الشريعة حسب اختلاف اختصاصاتهم وأغراضهم، لذا سنعرض بإيجاز لمعناها فيما يلي:

آ ـ السنة عند علماء الحديث: هي كل ما أُثِرَ عن الرسول ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خَلْقية أو خُلُقية، أو سيرة، سواء أكان ذلك قبل البعثة ـ كتَحَنُّثِهِ في غار حراء ـ أم بعدها، والسنة بهذا المعنى مرادفة للحديث عند المحدثين.

ب ـ السنة في اصطلاح علماء أصول الفقه: هي كل ما صدر عن النبي ﷺ ـ غير القرآن الكريم ـ من قولٍ، أو فعلٍ، أو تقرير، مما يصلُحُ أن يكون دليلاً لحكم شرعي.

جـ ـ السنة في اصطلاح الفقهاء: هي كل ما ثبت عن النبي ﷺ ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب.

فالسنة عند المحدثين أعم وأشمل من السنة عند الفقهاء والأصوليين، لأنها تتناول كل ما أُثر عن الرسول ﷺ، سواء أكان قبل البعثة أم بعدها، وسواءٌ أثبت حكماً شرعيًّا أم لا، لذا نبين معناها عندهم.

فالمراد بما أُثر عن الرسول ﷺ

«من قولٍ»: أحاديثه ﷺ التي قالها في المناسبات المختلفة، وما بينه من أحكام الإسلام وعقيدته وآدابه، كقوله: «إنّما الأعمالُ بالنيات»، وقوله: «لا ضررَ ولا ضرار».

«أو فعل»: أي: أفعاله ﷺ التي نقلها إلينا الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، مثل وضوئه، وصلاته، ومناسكه...

«أو تقرير»: كل ما أقر عليه الرسول ﷺ أصحابه من أقوال، أو أفعال،

بسكـوته وعدم إنكاره، أو بموافقته واستحسانه، فيعد ما صدر عنهم بهذا الإقرار والموافقة عليه صادراً عن الرسول ﷺ، ومثال هذا سكوت رسول الله ﷺ عن لعب الحبشة بالحراب في المسجد، وعدم إنكاره عليهم.

ومن هذا ما أخرجه أبو داوود والنسائي عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه أنه خرج رجلان في سفر، وليس معهما ماء، فحضرت الصلاة، فتيمما صعيداً طيباً، فصليا، ثم وجـدا المـاء في الـوقت، فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء، ولم يُعِدِ الآخر، ثم أتيا رسول الله ﷺ، فذكرا ذلك له، فقال للذي لم يعد: «أصبتَ السنة» وقال للآخر: «لك الأجر مرتين»(١).

وقول المحدثين: «أو صفة خلقية» يتناول هيئة الرسول ﷺ من خاتم النبوة، إلى نعته على ما خلقه الله تعالى بوجهه الكريم المشرب بالحمرة، وطوله ولونه، وابتسامته ﷺ.

وقولهم: «أو خُلقية» يتناول جميع شمائله ﷺ.

وقولهم: «قبل البعثة» يتناول جميع أحواله قبل البعثة النبوية لأنه معصوم ﷺ قبلها وبعدها.

وقـولهم: «أو بعـدهـا»، أي بعـد البعثة لأنه الإمام الهادي، والرائد الناصح، الذي أخبر الله عز وجل عنه أنه أُسوة لنا وقدوة، في قوله سبحانة وتعالى: ﴿لَقَد كانَ لَكُم في رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ لمنْ كانَ يَرْجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ وذكرَ اللهَ كثيراً﴾(٢).

* * *

(١) انظر «سُبل السلام» ص ٩٧ جـ ١.
(٢) ٢١ : الأحزاب.

ثانياً ـ السنة وعمل الصحابة:

يطلق العلماء السنة أحياناً على ما عمل به الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، سواء أكان ذلك في القرآن الكريم أم في المأثور عن الرسول ﷺ أم لا، لكونه اتباعاً لسنة ثبتت عندهم، أو اجتهاداً اجتمع عليه أمرهم.

ومن أشهر ما ثبت في السنة بهذا المعنى حد الخمر، وتضمين الصناع، وجمع المصاحف في عهد أبي بكر برأي عمر رضي الله عنهما، وتدوين الدواوين، وما أشبه هذا مما اقتضاه النظر المصلحي الذي أقره الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين(١).

ومما يدل على إطلاق السنة بهذا المعنى قوله ﷺ: «عليكم بسُنّتي وسنةِ الخلفاءِ المهديّينَ الراشدينَ، تمسّكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجِذِ»(٢). وقوله ﷺ: «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فِرقة، كلها في النار إلا واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»(٣).

★★★

ثالثاً ـ السنة و البدعة:

من المناسب في هذا المقام أن نبين أن بعض أهل العلم يطلقون السنة في مقابلة البدعة، والبدعة في اللغة الأمر المستحدث، وتطلق في الشرع على كل ما أحدثه الناس من قول أو عمل في الدين وشعائره، مما لم يُؤثر عن

---

(١) انظر «الموافقات» ص ٥ ـ ٦ جـ ٤.

(٢) أخرجه أبو داوود في حديث طويل «سنن» أبي داوود ص ٢٨ جـ ٤.

(٣) أخرجه أبو داوود، وابن ماجة، وغيرهما. «سنن» أبي داوود ص ٢٧٦ جـ ٤ و«سنن» ابن ماجة ١٣٢٢ جـ ٢.

الرسول ﷺ وعن أصحابه، بدلالة قوله ﷺ: «من أحدث في أَمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ»[1]، وقوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهَو رَدٌّ»[2]. كما تطلق على كل ما يُحدث الناس مما أريد به مضاهاة أمر ديني.

ولهـذا يقال: «فلان على سنة» إذا عمل على وفق ما عمل النبي ﷺ وأصحابه، سواء أكان ذلك مما نص عليه في الكتاب الكريم أم لم ينص.

ويقال: «فلان على بدعة» إذا عمل على خلاف ما عملوه، أو أحدث في الـدين ما لم يكن عليه السلف، ومن هذا القبيل قولهم: «طلاق السنة كذا»، «وطلاق البدعة كذا»، أو «هذا طلاق بِدْعي»، «وهذا طلاق سني».

★★★

رابعاً ـ الحديث والخبر والأثر:

آ ـ الحديث في اللغة: الجديد من الأشياء، كما يطلق على الخبر كثيره وقليله.

ب ـ والحديث في الاصطلاح يرادف السنة عند المحدثين، ويراد بهما كل ما أُثر عن رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها، وغالباً يراد به ما يُروى عن الرسول ﷺ بعد النبوة من قول أو فعل أو تقرير.

وإذا اطلق لفظ الحـديث عند الأصوليين أريد به السنة القولية، لأن السنـة عنـدهم أعم من الحـديث، وهي تشمـل قول الـرسول ﷺ وفعله

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داوود وابن ماجة، انظر «صحيح» مسلم ص ١٣٤٣ جـ ٣.

(٢) «صحيح» مسلم ص ١٣٤٤ جـ ٣.

وتقريره، مما يصلح أن يكون دليلاً لحكم شرعي.

والخبر عند المحدثين مرادف للحديث، فيطلقان على المرفوع إلى النبي ﷺ، وعلى الموقوف على الصحابة وعلى التابعين.

ولكن أكثر المحدثين يخصون الحديث بما جاء عن الرسول ﷺ، والخبر بما ورد عن غيره.

والخبر أعم من الحديث، لأنه يردُ على أخبار الأمم السابقة، والناس، ويتناول أخبار الرسول ﷺ وغيره، فبين الخبر والحديث عموم وخصوص، فكل حديث خبرٌ ولا عكس.

ولا بد من الإشارة إلى أن بعض المحدثين يسمي المرفوع والموقوف من الأخبار أثراً، إلا أن فقهاء خراسان يسمون الموقوف أثراً، والمرفوع خبراً.

***

خامساً ـ الحديث القدسي:

هو كل حديث يضيفه الرسول ﷺ إلى الله عز وجل، ونسبة الحديث إلى القدس وهو (الطهارة والتنزيه)، وإلى الإله أو الرب، لأنه صادر عن الله عز وجل من حيث إنه المتكلم به أولاً، والمنشيء له، وأما كونه حديثاً فلأن الرسول ﷺ هو الحاكي له عن الله تعالى، بخلاف القرآن الكريم، فإنه لا يضاف إلا إلى الله عز وجل، فتقول: قال الله تعالى، وتقول في الأحاديث القدسية: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه.

والفرق بين الحديث القدسي والأحاديث النبوية الأخرى، أن هذه نسبتها إلى الرسول ﷺ وحكايتها عنه، وأما الحديث القدسي فنسبته إلى الله تعالى، والرسول ﷺ يحكيه ويرويه عنه عز وجل، ولذلك قيدت بالقدس أو

الإلـه، فقيل فيهـا: أحـاديث قدسية، وأحـاديث إلهية، نسبة إلى الذات العلية، وقيدت الأخـرى بالنبي ﷺ، فقيل فيهـا: أحاديث نبوية نسبة إلى الرسول ﷺ، وإن كانت جميعها صادرة بوحي من الله عز وجل، لأن الرسول لا يقول إلا الحق، قال تعالى: ﴿وما يَنْطِقُ عنِ الهَوَى﴾[1].

ولا بد من التنبيه هنـا إلى أن تقييد الحديث بأنه قدسي لا يعدو بيان مُخْرَجِـهِ، فهـو وصف للحـديث، وليس حكماً عليه بالقبول أو الرد، ففي الحديث القدسي الصحيح وغيره، والضعيف والموضوع، كما سنبين هذا في مبحث «المشترك بين الصحيح والحسن والضعيف» إن شاء الله.

ومثال الحديث القدسي حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن الله عز وجل أنه قال: «يا عبادي إنيّ حرمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلتُهُ بينَكُم محرماً فلا تَظَالموا»[2].

وذكر العلماء الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي، وأهم ما ذكروه:

١ء ـ أن القـرآن الكريم معجزة باقية حتى تقوم الساعة، محفوظة من التغيير والتبديل، متواترة اللفظ في جميع الكلمات والحروف والأسلوب.

٢ء ـ القـرآن الكريم لفظه ومعناه من الله عز وجل ويوحي جَليّ، أما الحـديث القـدسي فلفظه من عند الرسول ﷺ، ومعناه من عند الله تبارك وتعالى، وبوحي أعم من أن يكون جليًّا أو غير جليّ.

---

(١) ٣ : النجم.

(٢) الحديث مشهور أخرجه بطوله الإمام مسلم في «صحيحه» ص ١٩٩٤ جـ ٤.

٣ء ـ يتعبد بتلاوة القرآن الكريم، ولكل حرف منه عشر حسنات.

٤ء ـ تتعين قراءة القرآن الكريم في الصلاة، ولا تجزىء قراءة الحديث القدسي.

٥ء ـ حرمة رواية القرآن الكريم بالمعنى، وتجوز رواية الحديث القدسي بالمعنى بالشروط التي نفصل القول فيها، في مبحث «رواية الحديث بالمعنى».

وغيرها من الفروق التي فصلنا القول فيها[1].

* * *

سادساً ـ المتن والسند:

السند في اللغة المُعْتَمَد، كما يطلق على ما ارتفع من الأرض، وكل شيء أسندته إلى شيء فهو مُسْنَد.

والسند في اصطلاح المحدثين هو سلسلة الرواة الذين ينقلون ما أضيف إلى الرسول ﷺ، وسمي سنداً إما لأن المسند يعتمد عليه في نسبة ما ينقله إلى مصدره، أو لاعتماد الحفاظ على السند في معرفة صحة الحديث وضعفه.

والمتن في اللغة ما ارتفع وصلب من الأرض، والمتن من كل شيء ما صلب ظهره.

والمتن في الاصطلاح هو ألفاظ الحديث التي تقوم بها معانيه، ولعله سمي متناً لأنه الظاهر والمطلوب والغاية من الحديث كله، فهو مأخوذ من

---

(١) انظر «الوجيز» هامش ص ٢٧ ـ ٢٨.

معانيه اللغوية السابقة.

وإليك هذا الحديث بسنده ومتنه: أخرج الإمام البخاري عن محمد بن المُثَنّى، قال: حدثنا عبد الوهاب الثَّقَفِيّ، قال: حدثنا أيوب عن أبي قِلابَةَ، عن أنسٍ، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليه مما سواهُما، وأن يحبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلا لله، وأن يكرهَ أن يعودَ في الكفرِ كما يكرهُ أن يقذفَ في النار»[1].

★★★

سابعاً ـ أهمية الإسناد واختصاص أمتنا به:

بيّنا قبل صفحات أن علم الحديث دراية يتناول السند والمتن، والسند رواة الحديث الذين ينقلون ما أضيف إلى الرسول ﷺ، ويهتم علماء الحديث برجال السند من حيث صدقهم وضبطهم وحسن سماعهم لما يروونه، ولقاؤهم بشيوخهم، وعدم طروء شيء على المروي من زيادة أو نقص، أو تحريف أو تصحيف، أو مخالفة في الرواية، ونحو هذا من دراسات المحدثين الدقيقة، إلى جانب حرصهم على معرفة اتصال السند أو انقطاعه، وعلوه ونزوله، وغير ذلك مما فصلته علوم الحديث أصولها وفروعها في ميدان معرفة الأسانيد ورواتها، والغوص على دقائق أحوالها، إلى جانب علوم السنة الأخرى التي تضافرت للحفاظ على السنة وصيانتها.

فما نقل من الأحاديث نقلاً متواتراً لا يحتاج إلى دراسة أسانيده، لأنه رواه جمع لا يُتَوَهَّم تواطؤهم على الكذب، في جميع طبقاته، فغاية ما تحققه الدراسة والبحث، وتنتهيان إليه يحققه النقل المتواتر، الذي يفيد القطع، ويورث

---

(١) «فتح الباري» ص ٦٦ جـ ١.

اليقين، وهو أعلى درجات النقل.

وما لم يبلغ حد التواتر فلا بد من إسناده، لِيُعرَفَ مَخْرَجُهُ وطريقه وأحوال رجاله، من صدق وضبط وعدالة، فيُقبلَ خبر من توفرت فيه شروط النقل، دون من لم تتوفر فيه جميعها أو بعضها، إلى جانب دراسة الجوانب الأخرى المتعلقة بالمتن والإسناد، ليحكم على الخبر بالقبول أو الرد.

إن مثل هذه الدراسات لم تكن معروفة قبل الإسلام ـ في جزيرة العرب أو غيرها ـ فكانت وقائع التاريخ وقصصه يُروى غثها وسمينها، وصحيحها وضعيفها، وحقها وباطلها، وقويها وسقيمها، وما حدث منها وما لم يحدث على أنها حقائق مسلمة، وكذلك كانت تتلقى الديانات، وتنقل الأفكارُ والأقوالُ من معلميها أو قائليها إلى من يليهم من غير أي تحرٍّ لأحوال نقلتها ولمضمونها، حتى إذا جاء الإسلام انبرى علماؤه إلى ضبط المنقول عن الرسول ﷺ ضبطاً دقيقاً محرراً.

فبفضل الإسناد حفظ الله تعالى على الأمة دينها، وقد اشتهرت بين أهل العلم والناس كافة منذ عصر التابعين عبارة العلماء: «إن هذا العلمَ دينٌ، فانظروا عمن تأخذون دينكم»(١)، وقولهم «إن الإسنادَ من الدين، ولولا الإسناد لقالَ من شاءَ ما شاءَ»(٢).

قال محمد بن حاتم بن المُظَفّر: «إن الله أكرمَ هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم إسناد، وإنما هي صحف بأيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وهذه الأمة إنما تنص الحديث من الثقة المعروف في زمانه، المشهور بالصدق والأمانة عن مثله،

---

(١) و (٢) انظر كتابنا «السنة قبل التدوين».

حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشدَّ البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقلَّ مجالسةً، ثم يكتبون الحديثَ من عشرين وجهاً وأكثر، حتى يهذبوه من الغلط والزَّلل، ويضبطوا حروفه ويعدُّوه عدًّا، فهذا من أعظم نعم الله على هذه الأمة، نستوزع الله شكر هذه النعم»[1].

وقال الإمام الحافظ أبو حاتم الرازي: «لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسول إلا في هذه الأمة»[2].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ أَثارةٍ من علمٍ﴾ إسناد الحديث»[3].

وعن مالك ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿وإنَّهُ لذكرٌ لكَ ولقومِكَ﴾ قال: قول الرجل: (حدثني أبي عن جدي).

كل ما سبق يؤكد أهمية الإسناد، وتوافق المحدثين على أنه مما تفردت به أمة محمد ﷺ، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿إنّا نحنُ نزّلنا الذِّكْرَ وإنّا لهُ لحافظونَ﴾[4].

---

(١) «الوجيز» ص ٣٣ عن شرف أصحاب الحديث، ورقة ٧٩: ب ـ ٨٠: آ، نسخة الظاهرية.

(٢) المرجع السابق ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) بعض الآية: ٤، من سورة الأحقاف، أصل الكلمة من الأثر، وهي الرواية، يقال: أثرت الحديث آثرُهُ أثَرَةً وإثارة وأثراً: إذا ذكرته عن غيرك. انظر «فتح القدير» للشوكاني ص ٥ جـ. وانظر «تفسير» ابن كثير، ص ١٥٤ جـ ٤.

(٤) ٩ : الحجر.